

الْغُرَبَاءُ

بقلم الشيخ
محمد نبال التكريتي

الغربة حالة لا يُحسد عليها من وصل إليها .. فهي في الدنيا معاناة وصبر، وفي الآخرة فوز وأجر .. ومما وعد الله به الغرباء طوبى، و(طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها) كما جاء في الحديث الصحيح. والكلام عن الغربة كثير وطويل، ولا يجب أن يتوقف، لأنّ استيعاب المسلمين له وتمثلهم معانيه ضعيف .. ولذلك أسباب، لكنني سأحدد نفسي بالسبب الرئيس!.. إنه الفرق الكبير بين ما يجري على الأرض من شؤون حياتهم العامة التي لا تُحْكَم الدين في أكثر المناحي، وبين دين يعتقدونه ويحرصون على التزامه .. والشدّ في كلا الإتجاهين قوي!.. ولا يُحل الإشكال إلا بقطع الاتصال مع جهة، والبقاء مع الأخرى. فإما مع الدين ولو خالف الواقع، ومن هنا تبدأ الغربة!.. أو مع الواقع ولو خالف الدين، وهنا تُباع الآخرة بالدنيا، ويا لخسران من كان هذا اختياره!.. وفريق ثالث اختار أن يُقاوم الشدّ بالاتجاهين، وهذه أتعب الحالات ولن تدوم، فلا بُد من انفلات الزمام من طرف، والاصطفاف مع الطرف الآخر.

أحاديث الغربة معروفة لأكثر المسلمين، ولن أكرر الكلام عنها. لكنني سأتحفكم بكلام لعالمين في القديم عانيا غربة الإسلام، وفهما ظروفها وممارساتها، وأشكال القسوة فيها، لكنّ الله أعانها عليها فصبرا وصدما، وها هما ينقلان لكل مسلم تلك التجربة لتكون عوناً، بعد توفيق الله، لتجاوز الامتحان .. وأختم برأيي وهو: أنّ معاناة أهل الواقع المعاصر أشد من غربة القدماء لكثرة الفتن، وتنوع الصوارف والإغراءات، والأسوأ وجود الفتاوى الملبسة والمدلّسة من علماء السوء!

الشخصيتان هما الآجري صاحب كتاب الشريعة المشهور، وابن القيم وهو أشهر من أن يُعرّف، وأرجو أن تكون القراءة بإمعان، ولا مانع من أن تُكرر مرات، فأمر الغربية هو دأب كثير من المسلمين، في واقعنا المعاصر.

يقول الآجري رحمه الله: (من أحب أن يبلغ مراتب الغرباء فليصبر على جفاء أبويه وزوجته وإخوانه وقرابته. فإن قال قائل: فلم يجفوني وأنا لهم حبيب، وغمهم لفقد إياهم إياي شديد؟ قيل: لأنك خالفتهم على ما هم عليه من حبه الدنيا وشدة حرصهم عليها، ولتتمكن الشهوات من قلوبهم ما يبالون ما نقص من دينك ودينهم إذا سلمت لهم بك دنياهم، فإن تابعتهم على ذلك كنت الحبيب القريب، وإن خالفتهم وسلكت طريق أهل الآخرة باستعمالك الحق جفا عليهم أمرك، فالأبوان متبرمان بفعالك، والزوجة بك متضجرة فهي تحب فراقك، والإخوان والقرابة قد زهدوا في لقائك. فأنت بينهم مكروب محزون .. فحينئذ نظرت إلى نفسك بعين الغربية فأنت بمن شاكلك من الغرباء، واستوحشت من الإخوان والأقرباء، فسلكت الطريق إلى الله الكريم وحدك، فإن صبرت على خشونة الطريق أياماً يسيرة واحتملت الذل والمداراة مدة قصيرة، وزهدت في هذه الدار الحقيرة أعقبك الصبر أن ورد بك إلى دار العافية، أرضها طيبة ورياضها خضرة، وأشجارها مثمرة، وأنهارها عذبة).

وإليكم ما قاله ابن القيم رحمه الله في الغربية: (فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة .. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا فلا غربة عليهم وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم: { وإن تطع أكثر من في الأرض

يضلوك عن سبيل الله { فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربية الموحشة وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم كما قيل:
فليس غريبا من تناءت دياره ... ولكن من تنأين عنه غريب).

ثم يتابع رحمه الله: (فالعربة ثلاثة أنواع: عربة أهل الله، وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي العربة التي مدح رسول الله أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبا وأنه سيعود غريبا كما بدأ وأن أهله يصيرون غرباء وهذه العربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم .. ولكن أهل هذه العربة هم أهل الله حقا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم فيقال لهم ألا تتطلقون حيث انطلق الناس..؟ فيقولون فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نعبده.

فهذه العربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه).

ويتابع رحمه الله: (ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا، وأكثر الناس بل كلهم لائم لهم .. فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شنوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم).

ثم يُتابع رحمه الله: (وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ... فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم ، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم.

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شحهم وأعجب كل منهم برأيه).

ويمضي ابن القيم في حديثه عن الغرباء: (فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه وفقها في سنة رسوله، وفهما في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتكبرهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه، فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهناك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله. فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبه لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرفته لا يجد من العامة مساعدا ولا معيناً، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى

الأهواء والبدع، أمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر
معروف).

أسأل الله أن يجعلنا من الغرباء، وأن نعصّ بالنواجذ على وحي السماء، وأن نفارق
ما عليه الناس وإن كانوا أقرباء!..

والحمد لله رب العالمين